موت الياسمين

زكريا تامر

استطاعت سلمى التوظف كمعلمة في احدى المدارس اثر نوالها شهادة تثبت انها نامت مع ٩٢٧ رجلا في سنة واحدة . وقد عهد اليها بالتدريس في الصف الاول ، وكان عدد تلاميذه ثلاثين طفلا ، لا يتجاوز عمر كل منهم سبع سنوات .

وحين فتحت سلمى الباب بحذر وغبطة ، ودلفت الى داخل قاعة الدرس دون ضجة، كان التلاميذ يصخبون ويتصايحون ، وكان بعضهم يضرب خشب المناضد بقبضاتـــه ، ولكنهم كفوا عن الضجيج جميعاً اذ تنبهوا لوجودها ، وبدأوا بالتطلع اليها متفحصين ، وكانت سلمى فتاة جميلة ، لها نهدان ناضجان ، وشفتان مكتنزتان ، ومنفرجتان باستمرار كأنهما موشكتان على الهمس في اية لحظة بسر مذهل .

وساد الصمت في قاعة الدرس الطويلة ، ووقفت سلمى امام اللوح الخشبي الاسود ، واخذت تراقب وجوه الاطفال الذين صاروا منذ تلك اللحظة تلاميذها . وغمرهـــا فرح طاغ،فقدتحقق حلمها بان تحيا مع اطفال لم يعرفوا بعد المرارة والهزيمة .

وهمس تلميذ لزميله الجالس بجواره :

ـــ انظر الى حضنها .

ـــ انا انظر فقط الى نهديها .

ـــ لماذا ؟

ـ انا روحاني .

وفي آخر قاعة الدرس ، كان ثمة اثنان يتحدثان بصوت خافت :

ـ اين سهرت البارحة ؟

ـ في الملهى ، وكان الويسكي رديئاً .

وبصق باشمئزاز على الارض ، ثم قال :

ـ كل شيء اصبح رديئاً في هذه الايام .

وقالت سلمى بصوت عذب :

ـ هذا هو الدرس الاول ، وسأعلمكم ...

وهتف احد الاطفال مقاطعاً :

ـ ماذا ستعلميننا ؟

ـ اللغة .

فنهض طفل له عينان سوداوان ، وقال متسائلا بلهجة متحدية :

ـ ما الفائدة ؟

ـ ستقرأون الكتب .

ـ ماذا يوجد في الكتب ؟

ـ تجارب الحياة كلها .

ـ لا نريد .

وارتفعت صيحات الصغار : لا نريد .

فصرخت سلمى بصرامة : اسكتوا .

وتساءلت عندما خفتت اصواتهم :

ـ ماذا تريدون اذاً ؟

ـ غني لنا .

ـ ارقصي .

ـ حدثينا عن الحب .

واشعل احدهم سيكارة ، وراح ينفث دخانها بضجر وعصبية ، بينما اخرج اخر مجلة من درج منضدته ، وانهمك في تقليب صفحاتها متأملا صور نساء عاريات .

وقال طفل ذو شعر اشقر ، تنحدر خصلة منه على جبهته :

ـ انا اخاف من النوم وحدي .

فابتسمت سلمى ، وسألت بحنو :

ـ ماذا تريد مني ؟

ـ نامي معي .

ـ الن يعترض والدك ؟

ـ سينام معنا .

وقال تلميذ آخر ذو ثياب انيقة :

ـ هل تتعشين معي الليلة ؟

فتأملته سلمى مليا ثم قالت : انا موافقة .

ولوح احد التلاميذ بمدية متألقة النصل ، وقال لزملائه :

ـ سأذبح دجاجات الجيران ثم سأذبح بنات الجيران ثم سأذبحكم .

وبغتة وقف تلميذان، وطفقا يتبادلان الكلمات والصفعات ، فغادر التلاميذمقاعدهم، والتفوا حولهما متصايحين بحماس ، فأسرعت سلمى نحو الطفلين المتشاجرين ، وابعدت واحدهما عن الآخر ، فانتهز التلاميذ الفرصة ، واخذوا يلتصقون بسلمى ، ويلمسون جسدها بايديهم ، ويقرصون لحمها الطري باصابع نهمة ، فلم تغضب سلمى انما ضحكت مبتهجة . وسألت التلميذين :

ـ لماذا تشاجرتما ؟

ـ طلب مني ان اخبره عما يفعل ابي مع امي .

فقالت سلمى بأسف :

ـ لماذا لم تخبره ؟ الا تحب فعل الخير ؟

وتسللت نبرة غاضبة الى صوتها ، بينما كانت تستأنف كلامها قائلة :

ـ يجب ان تحب الاخرين لكي تكون انساناً طيباً كاملا . انت اناني . هل تحب احداً؟

ـ انا احب زوجة جارنا .

ـ لماذا ؟

ـ جسدها ضخم وجميل .

ـ هل ستحبها لو كانت قبيحة ؟

ـ لا . سأحب ابنتها .

وفي تلك اللحظة كان الصغار قد تجمعوا كلهم حول سلمى متزاحمين وتواقين الى الالتصاق بجسدها . وازداد عدد الايدي الصغيرة التي تلمس لحمها . وبعثت طراوة اللحم في الاصابع روحاً شريرة ، حولت الاصابع الى حيوانات صغيرة متوحشة .

وضحكت سلمى بمرح ، وكانت ضحكتها كغيمة بيضاء تعبر سماء صيف ازرق . وتدافع الاطفال فيا حولها وكأنهم نحل يبغي امتصاص رحيق زهرة واحدة . واشتدت ضراوة اصابعهم بينما هي تلمس اللحم الطري ، وتفاقم توقها لاقتحام سهول بيضاءناعمة ، شمسها حارة . وحاولت الاصابع تمزيق الثوب، فقاومت سلمى ضاحكة ، غير انمقاومتها الضئيلة قوبلت بعنف محموم ، اضعفها وبدد قواها واجبرها على الاستسلام والسقوط باعياء على الارض .

وغرقت سلمى في طوفان الاصابع الصغيرة التي مزقت ثيابها كلها . واحست سلمى بالبلاط بارداً تحت ظهرها العاري ، بينما كان الاطفال كحيوانات غامضةلا عدد لها تلهث وتدب فوق لحمها وتعتصره بشراسة . وضحكت سلمى وهي توشك على بلوغ ذروة الفرح ، فقد كانت تتمنى فيما مضى بان تعيش مع اطفال لم يعرفوا بعد اقنعة الارض السوداء . غير ان هلعاً جنونياً امتلكها فجأة حينما بدأت الاسنان الصغيرة تقرض لحمها وتصطدم بالعظم الصلب .